الرحلات الاستكشافية

والأطماع الأوروبية في المنطقة الجنوبية من المغرب

منذ الفتح الاسلامي لشمال افريقيا، لعبت الصحراء دورا اقتصاديا وسياسيا شبهه بعض الباحثين بالدور الذي لعبه البحر بالنسبة للحضارة الأوروبية خاصة بعد الاكتشافات الجغرافية. فمنذ القرن السابع الميلادي، تمكن العرب من عبور الصحراء، رغم قساوة الظروف الطبيعية، والوصول إلى مناطق السودان الغربي. فأصبحت الصحراء تربط بين هذه المناطق الأخيرة والعالم الاسلامي، فظهرت الطرق والمراكز التجارية ونشطت حركة القوافل. بل إن سجلماسة أصبحت العاصمة العالمية للذهب في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، واتخذت صورة أسطورية في الكتابات الشرقية. وبازدهار التجارة القفلية، ازدهرت عمليات التبادل التجاري بمختلف الموانئ المغربية كأسفي وأكادير وسلا وسبتة...الخ، حيث كانت السفن الأوروبية تغادر هذه الموانئ محملة بالذهب والعاج وريش النعام والنحاس ومواد أخرى. ونظرا لأهمية الذهب في الاقتصاد العالمي أخذت الدول الأوروبية تجمع المعلومات حول هذه التجارة، فقامت بإرسال مستكشفين وعملت على تنظيم حملات عسكرية في المنطقة الجنوبية من المغرب، مما لايترك مجالا للشك في العلاقة بين الرحلات الاستكشافية والأطماع الأوروبية.

لم يتم استعمار المغرب بين عشية وضحاها، وإنما جاء نتيجة تطور تاريخي طويل تمثل أساسا في الأطماع الاستعمارية التي ظهرت جليا بعد تدهور الامبراطوريات المغربية وتغير ميزان القوة بين ضفتي حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد شعر المغاربة بهذا الانقلاب منذ انهزام السلطان الموحدي الناصر أمام جنود الملك القشتالي في معركة العقاب يوم 16 يوليوز 1212 م. حيث شكل هذا الحدث بوضوح بداية نهاية الامبراطورية الاسلامية في الأندلس[1].إلا أن حرب "الاسترداد" ضد المسلمين لم تستمر، فقد عاد المجندون من فرنسا وايطاليا إلى بلدانهم واندلعت أزمات داخلية في قشتالة وآراغون لم يتمكن الملوك الموحدون الضعفاء من استغلالها. وانطلاقا من سنة 1225 م استعاد المسيحيون نشاطهم الحربي ضد المسلمين تحت قيادة الملك فردناند الثالث ملك قشتالة وجيم الأول ملك الآراغون. وفي سنة 1233 م وحد فردناند قشتالة وآراغون مما زاد من قوة المسيحيين. واستفاد الملوك المسيحيون من انقسام المسلمين باستقلال تونس وتلمسان عن السلطة الموحدية وظهور ملوك الطوائف من جديد في الأندلس.

[1] Brignon et ses collaborateurs; histoire du Maroc: Hatier;1967;p.60

فأخذ الأوروبيون يتربصون بالمغرب للتجسس عليه أو لاحتلال أجزاء من ترابه. ولهذا الغرض أرسل رحالة وجواسيس للتعرف على البلاد وسكانها بواسطة تنظيم رحلات استكشافية أظهرت بوضوح الأطماع الاستعمارية في المناطق الساحلية والمنطقة الجنوبية من المغرب وخاصة الصحراوية لأهميتها الاقتصادية والاستراتيجية. ولهذا كانت محط اهتمام الأوروبيين منذ القرن الثالث عشر الميلادي.

يجمع الباحثون على أن الفتح الاسلامي لشمال افريقيا أدى إلى دمج الصحراء في الاقتصاد العالمي[2]. فأصبح بإمكان القوافل بعد تحديد المسالك وتهيئتها بالآبار للتزود بالمياه، نقل البضائع من الدول الواقعة جنوب الصحراء نحو الشمال وخاصة الذهب. ونسجت عبر الأزمنة روابط اقتصادية واجتماعية ودينية وثقافية. فأصبحت الصحراء ذات أهمية استراتيجية كبرى، واندمجت كليا بل عضويا مع مختلف المناطق الشمالية. وهكذا فإن مجال حكم كل الدول والسلالات في المغرب امتد من البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى المناطق الصحراوية جنوبا، بل وصل أحيانا إلى نهر السنغال.

نظرا لأهميتها الاقتصادية والاستراتيجية أصبحت الصحراء المغربية محط أطماع القوى الأجنبية الساعية إلى التوسع، وخاصة الدول الأوروبية التي أصبحت تهدف إلى استكشافها والسيطرة عليها جزئيا أو كليا. ونتج عن عمليات الاستكشاف مادة وثائقية وكتابات تاريخية تضمنت معلومات عن المنطقة وسكانها. واعتبر الأوروبيون رحلة ليوبولد بوني Léopold Ponet سنة 1850م من سان لويس في السنغال إلى موكادور (الصويرة) أول استكشاف منظم للصحراء المغربية. وبالفعل فقد كانت أول رحلة منظمة من طرف الحكومة الفرنسية للتعرف على المنطقة الممتدة من السنغال إلى المغرب[3].

وللإشارة فإن هذه الرحلة تمت بعد انهزام المغرب في معركة إسلي سنة 1844م وتوقيع المغرب وفرنسا اتفاقية للا مغنية سنة 1845م والتي اقتطعت بموجبها أجزاء كبيرة من التراب المغربي ووضعت تحت سيطرة الفرنسيين مع ترك المناطق الصحراوية بدون تحديد بهدف التوسع المستقبلي[4].

لكن قبل هذا التاريخ زار المنطقة الكثير من الرحالة العرب والأوروبيين الذين تركوا مادة وثائقية تتمثل في التقارير والرحلات والكتابات التاريخية. ومن هنا التساؤل حول طبيعة وأهداف الرحلات والكتابات.

---

[2] cf/ Jacques Meunier, le Maroc saharien des origines à 1670, tome 1, Paris, 1982, p.62 sq

[3] Léopold Ponet, Première exploration du Sahara Occidental/ Relation d'un voyage du Sénégal au Maroc,Paris, 1850

[4] انطلاقا من سنة 1844 شرعت فرنسا في اقتطاع أجزاءا من التراب المغربي رغم احتجاجات السلطان بل تفاقمت الأزمة في بداية القرن العشرين

I.الرحلات الاستكشافية الأولى

في القديم، أي قبل العصور الوسطى، لم تكن المنطقة الممتدة من جنوب الأطلس الكبير إلى السنغال، أي المنطقة الصحراوية، مجهولة بالمرة. فقد كان البحارة القدامى يعرفون جزر الكناري والساحل الصحراوي، ولكنهم لم يتجاوزوا طرفاية. وفيما بعد لم تسجل المصادر إلا بعض الرحلات الفردية على السواحل الافريقية.

ومنذ نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، بدأ البحارة الأوروبيون في الوصول إلى الساحل الافريقي انطلاقا من جزر الكناري[5]التي وفرت إمكانيات لبلوغ الساحل الافريقي. وكان الهدف من الرحلات هو استكشاف المنطقة وجمع معلومات جغرافية وإثنية بهدف التوسع وإقامة مراكز للتجارة والصيد إذا سنحت الفرصة بذلك، أو على الأقل الاتجار للحصول على الذهب والعبيد[6].

فخلال سنة 1291م قام الأخوان فيفالدي **Vivaldi** بقيادة حملة ممولة من طرف جنوا للوصول إلى الهند عبر السواحل الافريقية. فوصلوا إلى سبتة وأبحروا إلى واد نون، ولكن مصير الحملة ظل مجهولا إلى الآن. وحوالي سنة 1336م وصل الجنوي لنزروتي مالوسيلو **Lanzaroté Malocello** إلى جزر الكناري وأقام بها لمدة عشرين سنة تقريبا. وانطلاقا من هذا التاريخ تعددت الحملات إلى الشاطئ الصحراوي، حيث تم إحصاء سبع حملات، واحدة برتغالية سنة 1341م وست رحلات كاتلانية بين سنة 1342م و 1386م. ومن خلال بعض الوثائق تمكن أحد الأوروبيين جاكم فيرير **Jacme Ferrer** من الوصول إلى وادي الذهب سنة 1346م، أي خلال فترة حكم الدولة المرينية والتي أخذت قوتها في التراجع أمام قوة المسيحيين في الأندلس. فقد شكل هذا التاريخ بعد الهزيمة الكاملة أمام الاسبان نهاية الجهاد في الأندلس.

بل إن المغرب عانى من أزمة سياسية واقتصادية واجتماعية غداة اغتيال أبي عنان المريني، وزادت حدتها خلال قرن من الزمن. وخلال هذه الفترة وقع صراع حول السلطة بين الوزراء الذين أصبحوا يعينون ويعزلون السلاطين. فتدهورت سلطة المخزن وضعفت مداخيل بيت المال وانهار الجيش، وظهرت مملكتين: مملكة مراكش بزعامة أمير هنتاتي ومملكة في سجلماسة بزعامة عرب معقل، وأصبحت هذه الاخيرة تتحكم في التجارة القفلية.

[5] Raymond Mauny, les navigations médiévales sur les cotes sahariennes antérieures à la découverte portugaise (1434), Lisbonne, 1960.
[6] Robert Ricardo, Recherches sur les relations des iles canaries et de la Berbérie au XVIè siècle, Hespéris,Tome 21, 1935, pp.79-129

انقسمت شمال افريقيا إلى دويلات متصارعة فيما بينها: المرينيون وبنو عبد الواد والحفصيون. فاستغل الاسبان الوضع للتجسس على المنطقة الجنوبية لمعرفة الكيفية التي يحصل بها التجار المغاربة على الذهب.

ففي بداية القرن الخامس عشر الميلادي وصل النورمانديون بقيادة جون دو بتنكور Jean de Bethencourt إلى المنطقة، فقاموا بغزو واحتلال جزء من الكناري بين 1402م و 1405م. وأثناء محاولة اثني عشر بحارا للوصول إلى السواحل الافريقية غرقت سفينتهم ولم ينج منهم إلا اثنان تم أسرهما من طرف السكان. ونظم جون دو بتنكور حملة داخل الاراضي وأسر عددا من الرجال والنساء واستولى على 3000 جمل. ولعدم قدرته على شحن الجمال، قتل هذه الأخيرة ونقل الأسرى المغاربة إلى جزر الكناري[7].

شكل هذا الحدث منعرجا في العلاقات المغربية-الأوروبية والتي تميزت خلال هذه الفترة بالطابع العدائي. فقد أصبح المرينيون وخلفاؤهم الوطاسيون عاجزين عن الوقوف في وجه المد الايبيري. حيث قام البرتغاليون باحتلال سبتة سنة 1415م. وتوالت عمليات الاحتلال لأغلبية المدن الساحلية، بل إن البرتغال بسطوا نفودهم على منطقة دكالة بعد تجنيدهم لمجموعة من المغاربة بزعامة يحيى أو تعفوفت[8]. وتوالت عمليات الاحتلال، وقامت الزوايا بتأطير السكان والدعوة إلى الجهاد مع ضعف المخزن وما نجم عنه من فراغ سياسي. وموازاة مع ذلك ازدادت الأطماع الايبيرية في المغرب. فابتداء من سنة 1421م وبتشجيع ومساندة هنري الملاح (1394-1460)، نظمت حملات عديدة إلى السواحل الافريقية ومنها الساحل الصحراوي المغربي، كحملة كونسالو فيتو Gonçalo Vetho سنة 1426م للمنطقة الممتدة بين واد درعة وطرفاية[9]. إلا أن السكان تصدوا للحملة المذكورة.لكن ضعف الدولة المرينية وازدياد قوة البرتغاليين شجع الأخيرين على المزيد من التوسع سواء جنوب نهر أم الربيع أو في المناطق الصحراوية، حيث تشير المصادر إلى وصول البرتغاليين للمرة الأولى إلى وادي الذهب وشراء عبيد من القبائل البربرية. وبعد التوقف لبضع سنين، استأنف البرتغاليون حملاتهم حيث نظموا 15 حملة بين سنة 1441م وسنة 1446م. إلا أن المقاومة الشرسة لسكان المنطقة بدعم من السلطان والزوايا حالت دون تمركزهم بها. وفي سنة 1443م اكتشف البرتغاليون جزيرة أركين، فأصبحت نقطة عسكرية لانطلاق عدة حملات.

عرض المؤرخ البرتغالي كوميز إينيس دوزيرورا في كتابه المؤلف بين سنة 1452م وسنة 1453م تاريخ استكشاف جزر الأطلسي والسواحل الافريقية مع التركيز على السواحل الصحراوية المغربية[10].

---

[7] Jean de Bethencourt, le canarien, livre de la conquete et conversion des canaries (1402-1422),Rouen 1874.

[8] انظر بوشارب ، دكالة و الاستعمار البرتغالي

[9] Robert Ricard, les portugais et le sahara atlantique au XVè siècle,Hespéris,11,1930, pp.97-110

[10] Ibidem

وأبدى بوضوح نية البرتغال في احتلال هذه المناطق لأهميتها التجارية والاستراتيجية. ومما يثير الانتباه، وصف المؤرخ لمغامرات المستكشفين البرتغاليين من أجل التجسس لصالح حكومة بلدهم ونمط عيش السكان. وحسب المؤرخ البرتغالي فإن السكان القاطنين برأس بوجادور يتجمعون في قرى صغيرة مع وجود قلعة محصنة محاطة بأسوار. ويشير إلى أن المنطقة كانت مأهولة بالسكان مما يفند الأطروحة الاسبانية القائلة بأن الصحراء المغربية أرض بدون سكان. وكان هؤلاء يعيشون تحت الخيام وتتشكل ثروتهم الرئيسية من قطعان الجمال والماعز والأغنام وبعض الأبقار. ويمتلك زعماؤهم بعض الخيول، وهم في ترحال مستمر. أما غذاؤهم فيتكون من الحليب واللحم وبعض القمح[11]. وهي نفس الاشارات الواردة عند الرحالة العرب. أما سكان السواحل فيتغذون على الأسماك الطازجة أو الجافة. وحسب نفس المؤرخ فقد قضى أحد البرتغاليين وهو خواو فرناندیز Joao Fernandes سبعة أشهر في منطقة واد الذهب بين القبائل الصنهاجية بين سنة 1445م و 1446م. واعتبره أول مستكشف لهذه المنطقة، حيث وفر معلومات عديدة ومتنوعة حول السكان. وخلال إقامته تجول متخفيا رفقة عائلة مغربية والتي انتقلت فيما بعد إلى البرتغال ربما بعد افتضاح أمرها بالتعاون مع المسيحيين. وسجل غلبة نمط الترحال والبحث المستمر عن الكلأ. وتحتوي معلوماته على مجموعة من أحكام القيمة حول النظام الاجتماعي والعدالة والعلاقات بين مختلف القبائل. وهذه النظرة الاديولوجية المشوهة للنص وغيرها من النصوص الأخرى، والتي استمرت في الكتابات الاستعمارية إلى فترة جد متأخرة، هي ناتجة أساسا عن الاصطدام والصراع بين دول تسعى للحفاظ على استقلالها وأخرى تهدف إلى الاستعمار والسيطرة مع اختلاف الأنماط الثقافية والعقدية والسياسية. ولكن مهمة الباحث تكمن في عزل الجانب الاديولوجي المشوه للنص. كما أشار أيضا إلى تجارة العبيد بين السكان والأوروبيين. وفي وصفه للحياة البرية تحدث عن كثرة النعام والغزلان والأرانب وعدد من الطيور. كما أشار كذلك إلى امتلاك الأغنياء لكمية كبيرة من الذهب استقدمت من بلاد السودان[12].

في سنة 1447م حاول البرتغاليون إقامة مركز تجاري في الداخل بإرسال ثلاثة تجار، ولكن القبائل الصنهاجية منعتهم من إنجاز المشروع. واقتسم كل من الاسبان والبرتغال مناطق النفوذ في الجنوب حسب اتفاقية 1494م، والتي أظهرت بوضوح الأهداف الاستعمارية للدولتين. واستمرت عمليات الاستكشاف وجمع المعلومات بتمويل حكومي. إذ أنه في بداية القرن السادس عشر الميلادي أرسلت البرتغال دوارتي باتشيكو بيريرا Duarte Pacheco Perira إلى الساحل الصحراوي للتعرف على المنطقة الموجودة بين واد نون وجزيرة أركين والمناطق الداخلية المجاورة لأهداف عسكرية. ومن بين المعلومات التي أوردها الرحالة وجود قلعة كبيرة محاطة بسور من الطين المدكوك، وتضم أربعة

[11] Ibidem
[12] Ibidem

قرى أهمها تكاوست والتي تقطنها 1500 نسمة. والقلعة عبارة عن مركز تجاري هام وسوق للذهب[13].

مع تدهور السلطة المركزية تمكن البرتغاليون من إقامة علاقات تجارية مع القبائل الصنهاجية انطلاقا من جزيرة أركين، حيث يتم تبادل الذهب والعبيد والجلود والصمغ بالأثواب والأغطية. ويوجد بالمنطقة منجمان للملح الذي ينقل إلى تومبوكتو لمبادلته بالذهب.

وفي نفس الفترة وصف مؤرخ برتغالي آخر الساحل الافريقي من سبتة إلى نهر السنغال[14]. ووصف بدقة أكادير وماسة وأكلو وواد نون، والتي كانت كلها مراكز تجارية لتبادل مختلف أنواع البضائع مع الأوروبيين، وأشار إلى وجود دار للسكة في واد نون.

II.الرحلات الاستكشافية خلال القرنين 16 م و 17م

لم يهتم البرتغاليون وحدهم بالسواحل الافريقية. ففيما بين 1455م و1456م قام أحد البنادقة ألفيزي دا موستو Alvise da Mosto برحلتين إلى المناطق الجنوبية ووصف الساحل بين الرأس الأبيض وجزيرة أركين والعلاقات التجارية بين السكان ومدينة تومبوكتو وكذلك مع البرتغاليين. إلا أن هدف البندقية لم يكن استعماريا ولكن تجاريا محظا[15].

أما الاسبان فقد اهتموا بهذه المنطقة منذ فترة طويلة. فقد تمكنوا من السيطرة على الاندلس وبدأوا في طرد المسلمين منها، بل شرعوا في استعمار مناطق في الساحل المغربي. ولم تقتصر أهدافهم الاستعمارية على الشمال بل شملت المناطق الجنوبية أيضا، خاصة بعد إقصاء البرتغاليين من جزر الكناري سنة 1490م. فأخذوا في ممارسة الصيد في المياه الاقليمية المغربية والتعاطي لتجارة التهريب وخاصة الذهب والعبيد.

قبل هذا التاريخ أقام الاسبان مركزا تجاريا وبنوا برجا للمراقبة قرب طرفاية في المنطقة المسماة Santa Cruz de Mar Puequena[16]، وظل الاسبان بهذه المنطقة إلى أن تم تحريرها من طرف السعديين سنة 1524م. ولتعزيز التواجد الاسباني عين حاكم جزر الكناري رئيسا للمنطقة الممتدة بين أكادير وبوجدور. ونظرا لتدهور الأوضاع بالمغرب مع تدهور الدولة الوطاسية، تمكن هذا الحاكم من استمالة بعض الزعماء المحليين وبعض القواد، ومن بينهم قواد افران وإفني وتمنارت[17].

[13] Robert Ricardo, les portugais et le sahara atlantique au XVè siècle, Hespèris, 11, 1930, pp.108-110
[14] P. de Cenival Th. Monod, description de la cote d'Afrique de Ceuta au Sénégal par Valentin Fernandes (1506-1507),Paris, 1938
[15] Carles scheffer, relation des voyages à la cote occidental d'Afrique d'Alvise da Mosto (1455-1457),Paris, 1895
[16] Cf. Pierre de Cenival et Frédéric de la Chapelle, possessions espagnoles sur la cote occidentale d'Afique, Santa-Cruz de Mar Pequena, Hespèris, 1935, pp.19-66
[17] Ibid, p.27

وبفضل سياسة الاستقطاب تمكنت اسبانيا من السيطرة على مجموع المنطقة التي تضم إفني وتكاوست وأودية واد نون ورافده واد إفران وواد تمنارت، أي مثلث طوله 160 كلم وعرضه يتراوح بين 30 و 40 كلم. وخلال سنة 1500م تلقى ألونسو دي لوكو Alonso de Lugo الأوامر لبناء ثلاث قلاع على الشاطئ الصحراوي:

- قلعة في رأس بوجدور

- قلعة في تكاوست

- قلعة على بعد خمسة أميال من تكاوست

إلا أن الاسبان اصطدموا بالمقاومة العنيفة للسكان، فاضطروا إلى التراجع. وقاموا باحتلال أكادير سنة 1504م، ولكن تم طردهم منها. وطيلة القرن السادس عشر نظم الاسبان مجموعة من الحملات العسكرية على طول الساحل الافريقي وفي اتجاه المناطق الداخلية انطلاقا من جزر الكناري لنهب الماشية والحصول على العبيد. كما نقلوا عددا من المغاربة للعمل في مزارع ومصانع السكرالمنتشرة في الجزر[18]. وحسب الوثائق وصل عدد العبيد في مدينتي لنزروتي Lanzarote وفويرتيفنتورا Fuerteventura إلى 1500 عبدا تم استجلابهم من المنطقة الصحراوية. وشملت العمليات مجموع الساقية الحمراء التي أصبحت مسرحا اعتياديا للغزو والنهب. ففي فبراير سنة 1571م توغلت قوة اسبانية بحوالي 60 كلم في الداخل وأسرت 36 شخصا من سكان المنطقة[19]. إلا أن الحملات الاسبانية توقفت مع بداية القرن السابع عشر الميلادي لعدم قدرة اسبانيا على متابعة مشروعها التوسعي.

وهكذا وإلى غاية القرن السابع عشر الميلادي، تمكن الاسبان والبرتغال من الوصول إلى السواحل المغربية الصحراوية لأهداف متعددة تتمثل في الاستكتشاف وممارسة التجارة واستعمار بعض المناطق. وكانوا يتفادون التوغل داخل البلاد إلا في بعض الحالات الاستثنائية لعلمهم المسبق بالمقاومة الشرسة للسكان، ومن بينها إقامة خواو فرناندیز Joao Fernandes في وادي الذهب بين سنتي 1445م و1456م، وإقامة رودريكيز Rodrigues في موريطانيا سنة 1493م و1494م، والحملة الاسبانية في الساقية الحمراء سنة 1571م.

[18] R. Ricardo,art. cit., 1935, p.83
[19] Ibid., pp.89-90

III.الرحلات والأسفار من القرن 16 م إلى القرن 18 م

خلال القرن السادس عشر الميلادي تمت زيارة الصحراء المغربية من طرف اثنين من الرحالة المشهورين، واحد عربي والآخر اسباني، وترك الاثنان معلومات دقيقة وهامة حول المنطقة وسكانها.

الأول هو الحسن بن محمد الوزان المزداد بغرناطة والمعروف تحت اسم جون ليون الافريقي. درس بفاس بعدما هاجرت عائلته من الأندلس إثر سقوط غرناطة سنة 1492م. وقام بعدة أسفار إلى افريقيا والشرق. ولكن في طريق العودة من الحج أسر في جربة من قبل قرصان صقلي. سلم إلى البابا ليون العاشر وبعد سنة من الأسر واعتناقه المسيحية سنة 1520م منحه البابا اسمه الشخصي حسب بعض المصادر. كتب بعد ذلك وصفا لافريقيا بالايطالية. بعد سنة 1525م عاد إلى تونس واعتنق الاسلام من جديد. وقبل هذه الفترة زار الحسن الوزان تومبوكتو مرتين، خلال سنة 1512م عندما اجتاز الصحراء مرورا بملاحة تيغازي وودان، وفي سنتي 1513-1514م عندما أقام في سوس ثم اتجه إلى درعة. في كتابه المنشور بالبندقية سنة 1550م وصف بدقة وتفصيل المناطق التي تمت زيارتها وسكانها وخاصة أولاد دليم وصنهاجة القاطنين بالصحراء. وكتب بخصوص أولاد دليم العرب المعقليين "ليس لهؤلاء العرب أية قيادة ولايحصلون على أية ايتاوة...ويقدمون غالبا إلى إقليم درعة لمبادلة ماشيتهم بالثمور... ويقدرون ب 10000 رجل، 400 منهم خيالة والباقي مشاة"[20]. وتوقف طويلا لوصف تقاليد وعادات صنهاجة الذين كانو يتنقلون في الصحراء الممتدة من المحيط الأطلسي إلى درعة وتغازى والسودان.

أما الثاني الذي زار الصحراء خلال القرن السادس عشر فهو الاسباني لويس مارمول كاربخال. فخلال سنة 1556م شارك في الحملة المغربية التي نظمها السلطان السعدي ضد بلاد السودان. ونشر سنة 1573م كتاب حول افريقيا حيث نقل الكثير عن الحسن الوزان. وأشار إلى الصعوبات الكبيرة التي عانها الجنود في المناطق الصحراوية لقساوة المناخ وقلة الماء، ووصف المنطقة الموجودة بين جبال الأطلس والسودان[21].

بعد قرن، وفي سنة 1670م وفر تاجر فرنسي ألبير شارنت Albert Charnet، والذي قضى 25 سنة في موريطانيا معلومات حول المناطق الخاضعة للسلطان المغربي مولاي رشيد (1664-1672). فقد نظم هذا الأخير حملات عسكرية في أدرار وتاكانت سنة 1665م، ثم في سوس سنة 1670 م. ويشير شارنت إلى مرافقة أحد البحارة الفرنسيين الأسرى بول إمبير Paul Imbert لقائد

[20] Jean Léon l'Africain,Description de l'Afrique, trad. Epaulard,Paris, 1956, t.1, pp.31

[21] مارمول كاربخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، الدار البيضاء، 1984، 3 أجزاء

مراكش أثناء رحلته إلى تومبوكتو[22]. ومن جهته نشر أحد الرهبان الفرنسيين لابا Labat سنة 1728م وصفا مفصلا لافريقيا الغربية.[23] وفي سنة 1740م نشر توماس بيلو Thomas Pellow رحلته ومغامرته بالمغرب[24]. وهو انجليزي أسر بعد غرق سفينة عمه، وكان عمره لا يتجاوز 14 سنة. فاحتضنه المولى اسماعيل وأصبح من الجنود النظاميين. وشارك في مختلف الحملات العسكرية، ومن بينها حملة المولى اسماعيل إلى شنقيط والسنغال.

خلال القرن الثامن عشر زار انجليز وأمريكيون السواحل الصحراوية. ويتعلق الأمر أساسا بالتاجر البريطاني جورج كلاس George Glas ، الطبيب الذي قام بعدة أسفار إلى غينيا وجزر الأنتيل والبرازيل بهدف التجارة. ثم أصبح قبطانا لسفينة، وأسر عدة مرات من طرف الفرنسيين الذين كانوا في حرب مع الانجليز. ثم تعاطى للتجارة في جزر الكناري. وفي سنة 1760م استطلع الساحل المحادي لواد الذهب، وكان على معرفة تامة بالسواحل الصحراوية لمعرفته باللغة العربية.

نظرا لصعوبة الملاحة في المحيط فقد غرقت عدة سفن ومن بينها سفن فرنسية، وخاصة بعد استقرار الفرنسيين في السنغال سنة 1779م. وألفت رحلات في فرنسا وانجلترا وخاصة من طرف الأسرى، ومن بينهم ثلاثة أسرى فرنسيين غرقت سفنهم قبالة السواحل الصحراوية بين سنتي 1784م و 1785م وهم سوكنيي Saugnier وفولي Follie وبريسون Brisson[25]. وقد أطلق سراحهم من طرف سيدي محمد بن عبد الله.

IV.التسرب الأوروبي واستعمار المغرب

عرفت العلاقات المغربية الأوروبية تدهورا في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر الميلادي لأسباب متعددة، من بينها سياسة الاحتراز المتبعة من طرف السلطان المولى سليمان والصعوبات الداخلية بأوروبا الناجمة عن الثورة الفرنسية وغزوات نابليون لمصر والنامسا وايطاليا وروسيا. لهذه الأسباب تضاءل اهتمام الأوروبيين بالمغرب . وشكلت تولية المولى عبد الرحمان بن هشام سنة 1822م بداية عهد جديد في العلاقات المغربية الأوربية. إلا أن الحدث البارز هو غزو فرنسا للجزائر سنة 1830م، حيث أدى الغزو إلى الاهتمام بالمنطقة الغربية لحوض البحر الأبيض المتوسط من طرف مختلف الدول الأوروبية، وهدد التوازن بالمنطقة وخاصة وضعية البريطانيين في جبل طارق. كما أحدث غضبا عارما في المغرب واعتبر تهديدا مباشرا. فانتشرت فكرة الجهاد، وساند المخزن والمغاربة

[22] A. Charant, lettre écrite en response de diverses questions curieuses sur les parties de l'Afrique ou régne aujourd'huy Muley Arxid, Roy de Tafilete, Paris, 1670.
[23] Pére Labat, Npuvelle relation de l'Afrique occidentale, Paris, 1728, 5 tomes.
[24] cf Magalli Morsy,la relation de Thomas Pellow. Une lecture du Maroc au 18è siècle, Paris, 1983
[25] Follie, mémoire d'un français qui sort de l'esclavage, Paris, 1785; Brisson, histoire du naufrage et de la captivité de M. de Brisson,Paris, 1789; Saugnier, Relation de plusieurs voyages à la cote d'Afrique,Paris,1792

مقاومة الجزائريين للفرنسيين بزعامة الأمير عبد القادر. وانتهى الأمر بالاصطدام في معركة اسلي سنة 1844م. وكان لهذه المعركة عواقب جد وخيمة، حيث ظهر بوضوح ضعف الجيش المغربي وتفوق القوات الفرنسية. وعلى إثر الانهزام وقع المغرب عددا من الاتفاقيات من بينها اتفاقية للا مغنية في مارس 1845م المتعلقة بالحدود. وحسب المعاهدة تم تجريد المغرب من الأراضي الواقعة غرب واد تافنا (البند الثالث)، وأصبحت أراضي شاسعة في الشرق والجنوب الشرقي، والتي كانت خاضعة فيما قبل للمغرب تحت سيطرة الفرنسيين. وتركت الصحراء بدون تحديد باعتبارها مرعى لسكان البلدين. وكان الهدف هو إدماج مشكل الحدود الشرقية في المخطط الاستعماري الفرنسي للسيطرة على المغرب. فأخذت فرنسا في التوسع انطلاقا من الجزائر.

خلال هذه الفترة أدى الاحتلال الاسباني للمدن المغربية وخاصة مدينتي سبتة ومليلية إلى توثر العلاقات المغربية الاسبانية سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي. فبعد هزيمة المغرب في معركة اسلي أخذت اسبانيا بدورها تسعى إلى توسيع حدود المدينتين. فعمد الجيش الاسباني إلى بناء محرس، فقام السكان بهدمه. فقدمت اسبانيا انذارا للمغرب تطالب فيه بمعاقبة المغاربة المسؤولين عن الأحداث وتحية العلم الاسباني من طرف القوات المغربية في ظرف 10 أيام.

في هذه الظروف الحرجة جاءت الأنباء بوفاة السلطان المولى عبد الرحمان سنة 1859م. فخلفه ابنه سيدي محمد المعروف بمحمد الرابع. وصرح البريطاني جون دريموند هاي بأن الاسبان مصرون على الاستجابة لمطالبهم. فكانت حرب تطوان يوم 4 فبراير 1860م والتي مني فيها الجيش المغربي بالهزيمة الثانية. وبعد مفاوضات وضغوط قبل المغرب الشروط الاسبانية المتمثلة في أداء غرامة مالية بقيمة 20 مليون ريال والسماح للاسبان بإقامة مركز للصيد قرب طرفاية وتوسيع حدود مدينتي سبتة و مليلية.

وظهر من خلال الاتفاق المطامع الاستعمارية الاسبانية بالمنطقة الشمالية والجنوبية من المغرب. وبعد المفاوضات العسيرة بين مختلف الدول الأوروبية (فرنسا، اسبانيا ايطاليا، ألمانيا، انجلترا) تم تحديد مناطق نفود كل من فرنسا واسبانيا بالمغرب. ففي اتفاقية 1900م اعترفت فرنسا لاسبانيا بحقها في احتلال الصحراء. إلا أن الغزو العسكري الاسباني لم يتم بسهولة لمقاومة القبائل المغربية وإفشالها عدة محاولات للتوغل. ومنها على سبيل المثال محاولات السيطرة على افني وطرفاية (1925،1921،1919،1916،1914). ولم تتمكن من اخضاع المنطقة إلا بعد تجنيد قوات برية وبحرية هائلة في أبريل سنة 1934م. وفي هذه السنة أيضا تم إخضاع آخر معاقل المقاومة بالأطلس الكبير.

رغم الاختلال في موازين القوة فقد قاوم المغاربة المحتل الفرنسي والاسباني عسكريا وسياسيا في شمال البلاد ووسطها وجنوبها. وتمكنوا من الحصول على الاستقلال سنة 1956م، واسترجاع طرفاية سنة 1958م وسيدي افني سنة 1969م والصحراء المغربية بعد تنظيم المسيرة الخضراء سنة 1975م. و رغم تحقيق الوحدة الوطنية بفضل جهود سياسية ودبلوماسية شاقة، لا زالت عدة مناطق تحت الاحتلال ومنها سبتة ومليلية والجزر الجعفرية، ناهيك عن الاراضي التي تم اقتطاعها من طرف الفرنسيين كتندوف وكلومبشار.

يظهر من خلال ما سبق أن الأطماع الاستعمارية في المغرب تعود إلى فترات قديمة لموقعه الاستراتيجي وإمكانياته الاقتصادية، حيث تم احتلال أجزاء من البلاد من طرف الرومان والبزنطيين. إلا أن احتلالهم لم يتجاوز المناطق الشمالية نظرا لعدة أسباب، من بينها صعوبة التوغل في اتجاه الجنوب لقلة المعلومات وحصانة المناطق الجبلية وقوة القبائل وعدم توفر الوسائل الازمة للقيام بمغامرة من هذا القبيل.

إلا أن الأوضاع الدولية أخذت في التغير بعد الاكتشافات الجغرافية وما رافقها من توسع أوروبي وازدياد أهمية التجارة الخارجية كمورد أساسي لتنمية الثروة الوطنية وخاصة المخزون المعدني من المعادن النفيسة. فأخذت الدول الأوروبية تسعى لجمع المعلومات حول مناطق انتاج الذهب وتجارته.

وبما أن المغرب كان من أهم المزودين لأوروبا بهذه المادة الثمينة، فقد سعت هذه الدول في مرحلة أولى إلى جمع المعلومات حول التجارة القفلية عن طريق البعثات الاستكتشافية، وفي مرحلة ثانية إلى استعمار بعض المناطق على طول الساحل الافريقي واستعمالها كمراكز لتموين السفن والاتجار مع الافارقة. وازدادت الأطماع الاستعمارية مع تغير ميزان القوة بين ضفتي حوض البحر الأبيض المتوسط، إذ أن ضعف السلطة والتدخل الأجنبي وما رافقه من تدهور شامل للأوضاع أدى في نهاية المطاف إلى احتلال البلاد من طرف الاسبان والفرنسيين.